

مدارس الشعر

رأينا في دراستنا في الشعر الفاطمي أن الشعراء كانوا موزعين بين اتجاهات فنية مختلفة وكل جماعة اتخذوا مذهباً في الفن يختلف عن مذهب الجماعة الأخرى، مما جعلنا نقسمهم إلى مدارس فنية كان أبرزها:

أولاً: مدرسة شعراء العقائد: وهؤلاء هم شعراء المدح الذين ظهرت في أشعارهم المصطلحات والعقائد الفاطمية، واستخدموا ذلك كله في مدح الأئمة مما جعل شعراء هذه المدرسة تتميز بتلك الصفة الخاصة عن غيرهم من شعراء العصر، كانوا مضطرين إلى أن يلائموا بين هذه المصطلحات، وبين الألفاظ الضخمة التي استخدموها في شعرهم فجاء شعرهم فيه من غريب المصطلحات ومن غريب الألفاظ ما أدى أحياناً إلى شيء من التعقيد، وإلى أن يكون كلامهم أقرب إلى النظم في أغلب الأحيان، استمرت هذه المدرسة بعد العصر الفاطمي أي في عصر الأيوبيين بالرغم من أن الشعراء لم يكونوا من الشيعة، وأن الممدوحين لم يكونوا أئمة الشيعة على نحو ما أظهرنا ذلك في فصل الشعر والتشيع وفصل الشعر والتصوف من هذا الكتاب، فالعقائد الفاطمية استمرت مصطلحاتها في شعر المدح، غير أن مدلولاتها تحولت وتطورت إلى غير ما كانت تعرف به في عصر الفاطميين، والشعراء الذين تحدثوا بهذه المصطلحات خضعوا لنفس المؤثرات الفنية التي كانت عند الشعراء الفاطميين. وقد تحدثنا لنفس المؤثرات الفنية التي كانت عند الشعراء الفاطميين، وقد تحدثنا عن ذلك بما فيه الكفاية. غير أن شعراء هذه المدرسة في العصر الأيوبي كانوا قلة ولم يختصوا بتلك المدرسة. ولم يوقفوا شعرهم على هذا النحو من الفن، إنما كانوا يلمون بخصائص هذه المدرسة إماماً هيناً على نحو ما رأينا عند ابن النبهي وابن سناء الملك وغيرهما.

ثانياً: مدرسة الرقة والسهولة: وهي تلك المدرسة التي تعتبر في العصر الأيوبي امتداداً وتطوراً للفن الذي يلائم الحياة المصرية والبيئة المصرية، وكانت تضم أكثر الشعراء في ذلك العصر، فالبيئة المصرية الطبيعية بيئة سهلة لينة، ليس بها التعقيدات التي للبيئات الأخرى، فالأرض منبسطة ليس بها ارتفاعات وانخفاضات وليس عندنا الأعاصير والزوابع التي في البلاد الأخرى، ويسر نهر النيل مشكلة الري والزرع مما جعل المصري يميل إلى السهولة في كل شيء، ويكلف بما هو لين رقيق، ولذلك كان فن القول في مصر سواء

أكان شعرا أم نثرا يتجه إلى هذا الاتجاه واضحا جليا في شعر مصر منذ العصر العباسي ، وظهر ظهورا لافتا في عصر الفاطميين حيث كان أكثر شعراء هذا العصر يتبعون هذا المذهب المصرى الخالص ، وجاء العصر الأيوبي فاستمر تيار هذا المذهب في قوة وعنف بحيث كاد جميع شعراء هذا العصر يتبعون هذا المذهب المصرى الخالص ، وجاء العصر الأيوبي فاستمر تيار هذا المذهب في قوة وعنف بحيث كاد جميع شعراء هذا العصر يتبعون تلك الطريقة في فنهم ، فالألفاظ لينة لم يعرفها الشعراء أصحاب الألفاظ الجزلة الفخمة ، وبحور الشعر مجزوءة أو قصيرة ولا يظهر في فنهم أى لون من ألوان التكلف ، وقل أن نجد ألوان الزينة اللفظية إلا ما جاء للتزلف فشرعهم صادر عن طبيعهم ، ويجرى على ألسنتهم وكأنهم يغرفون من بحر ، وأكثر شعراء هذه المدرسة من الغزليين حتى إن مذهبهم عرف في العصر الأيوبي بالطريقة الغرامية^(١) . فقد اهتم شعراء هذه المدرسة اهتماما خاصا بالمقدمات الغزلية فى قصائدهم التى قصدوا بها إلى موضوعات الشعر المختلفة كما أكثروا من الغزل وأطالوا فيه ، وقد رأى أصحاب الطريقة الغرامية تناسب شطرى بيت الابتداء فإن كان الشطر الثانى من مطلع القصيدة ليس من جنس الشطر الأول اعتبر ذلك الطريق الغرامى ؛ ويروى أن ابن سعيد المغربى فى زيارته لمصر اجتمع بالبهاء زهير وسأله أن يرشده السبيل إلى الطريقة الغرامية هذه ، فوجهه البهاء لقراءة بعض دواوين الشعراء على أن يراجعه بعد ذلك ، فغاب ابن سعيد مدة أكثر فيها من قراءة هذه الدواوين إلى أن حفظ أغلبها ، ثم اجتمع بعد ذلك بالبهاء زهير وتذاكرا فى الغراميات وفى غضون حديثهما أنشد البهاء :

يا بان وادى الأجرع

وقال اشتهى أن يكمل هذا المطلع ، ففكر ابن سعيد قليلا ثم قال :

سقيت غيث الأدمع

فقال البهاء : والله حسن ولكن الأقرب إلى الطريق الغرامى أن تقول :

هل ملئت من طرب معى^(٢)

فأنت ترى كيف جعل البهاء زهير الشطر الثانى من البيت ليس من جنس الشطر الأول ، ثم لعلك لاحظت هذه الألفاظ الرقيقة اللينة التى تألف منها البيت بشطريه ، وعلى هذا النحو سار شعراء مدرسة الرقة والسهولة فى العصر الأيوبي على نفس النحو الذى كان

(١) ابن حجة الحموى : خزانة الأدب ص ٨ .

(٢) نفس المرجع السابق .

يسير عليه شعراء هذه المدرسة في العصر الفاطمي ، بل ازدادت رقتهم وسهولتهم حتى وهم بعض الباحثين إلى أن شعرهم هو شعر شعبي ملئ بالألفاظ العامية ، والحقيقة أننا لا نجد لفظة عامية واحدة في هذه المجموعة من الأشعار التي حفظت لنا عن هذا العصر ولكن سهولة ألفاظ الشعر جعلت الباحثين يتوهمون هذا الوهم ويدعون الشعبية في شعر البهاء زهير وغير البهاء زهير. وشعراء هذه المدرسة تحدثوا في جميع الموضوعات التي عرفها الشعر فيها هو البرهان إبراهيم بن الفقيه المتوفى سنة ٦٤٠ هـ يقول:

والهف نفسي وواجدى وواحرانى	ومن أطفه جهدى ويتعبنى
بذلت روحى فى أدنى تواصله	ذلا وصبرا وعطفا وهو يهجرنى
وكلما رمت منه ما أهز به	عطف السرور انزوى عنى وأحزننى
وكيف أطمع منه فى الوصال وقد	أضحى وأمسى إزائى لا يكلمنى
يا من أحل دمي رفقا فقد فعلت	أحان عينيك فعل الصارم اليمنى
الله فى مهجة أتلفتها كمدا	بادر بوصل وإلا ليس تدركنى
هذى حياتى وافت للوداع فقل	مولاي ماذا به عينك تأمرنى ^(١)

فلعلك تلاحظ كيف لانت ألفاظ هذه المقطوعة وسهلت ، حتى كأن الشاعر إنما يتحدث حديثا عاديا بألفاظ اعتادها كل يوم ، مع ما فى المقطوعة من موسيقى أنتت من اختيار تلك الألفاظ اللينة واستعمالها هذا الاستعمال الفنى الخاص ، ثم إننا لا نجد فى هذه المقطوعة من التلاعب اللفظى ما يدل على أن الشاعر أراد الصنعة فجرى الشعر سهلا بسيطا على هذا النحو. ومن هؤلاء الشعراء أمين الدين بن أبى الوفاء المشهور بابن العصار ، وكان من شعراء الملك الكامل بن العادل ، فهو يقول مثلا فى إحدى مقطوعاته :

أعندكم أن قلبى	متييم مستهيام
الصبر إلا عليكم	فى كل حال حرام
لا أوحش الله منكم	فقربكم ما يرام
يا بادتى مذ نأيتم	لم يذن منى المنام
لا عيش لا عيش حتى	تلوح تلك الخيام
إن طال ذا الهجر منكم	على الحياة السلام ^(٢)

(١) المغرب ص ٢٥٥ .

(٢) المغرب ص ٢٧٧ .

فى هذه المقطوعة ترى عاطفة الشاعر الرقيقة تنبعث من هذه الألفاظ السهلة الرقيقة ،
 مما يجعل لها وقعا خاصا فى كل قلب كما تلذ لها الأذن لما فيها من موسيقى .
 وقال هبة الله بن عرام :

يا لائـمى فى غـزال	قلـبى رهـين يـديـه
لا تـطمـعن فى سـلوى	فـلا سـبـيل إلـيـه
كـم لـامـنى فـيـه قـوم	وعـنـفـونى عـلـيـه
حـتى إذا أبـصـروه	خـروا سـجـودا لـديـه
فـاحـفـظ فـؤادك فـالـمو	ت فى ظـبى مـقـلتـيـه ^(١)

وهاهو الشاعر النفيس وهو أبو العباس أحمد بن أبى القاسم المتوفى سنة ٦٠٣ هـ .
 يقول فى مقطوعة له يمدح بها الأمير جلدك والى دميـاط :

قل للـحبـيب أطـلت صدك	وجـعلت قـتلى فـيك وكـدك
إن شئت أن أسـلو فـرد	على قـلبى فـهو عـندك
أخـلفت حـتى فى زـيا	رتـنا بـطـيف مـنك وعـدك
وأنا عـليك كـما عـهد	ت وإن نـقضت عـلى عـهدك
أحـرقت يا ثـغر الحـبيب	حـشـاى لـما ذـقت بـردك
وشـهدت أنى ظـالم	لـما طـلبت إلـيك شـهدك
أنظـن غـصن البـان يـعـ	جـبـنى وقـد عـاينت قـدك
أم يـخدع التـفـاح أـلـ	حـاظى وقـد شـاهدت خـدك
لا والذى جـعل الـهوى	مـولـاى حـتى صـرت عـبدك
يا قـلب مـن لـانت مـعا	طـفه عـلـينا مـا أشـدك
أتظـننى جـلد الـهوى	أو أن لى عـزـمات جـلدك ^(٢)

لعل أهم ما يلفت النظر فى هذه المقطوعة رقة ألفاظها ، وحسن التخلص إلى الغرض من
 القصيدة وهو مدح الأمير جلدك ، فقد وفق الشاعر إلى ذلك توفيقا يدعو إلى الإعجاب بفنّه .

(١) الخريدة جزء ٢ ص ١٦٩ .

(٢) وفيات الأعيان : ابن خلكان ص ٥٢ .

وأصحاب هذه المدرسة اتخذوا لأنفسهم المقطوعات القصيرة بدلا من القصائد الطويلة. لذلك نرى أكثر الشعر الأيوبي الذى قاله شعراء الرقة والسهولة من نوع المقطوعات، ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى أنهم كانوا ينشدون لأنفسهم ولأصدقائهم فى مناسبة خاصة من المناسبات التى يريدون بها تسجيل عاطفتهم وشعورهم، فتركوا طريقة الشعر التقليدى القديم، أى هذا الشعر الذى كان ينشد للملوك والأمراء فى حفلات، أو فى البلاط ولهذا لم يجدوا ضرورة إلى أن ينشدوا المطولات واكتفوا بهذه المقطوعات، وأكبر دليل على ذلك أن الشاعر البهاء زهير كان من شعراء مدرسة الرقة والسهولة، ولكنه عندما كان يمدح، وكان مضطرا أحيانا إلى أن يتخذ الطريقة التقليدية القديمة، ويطيل فى قصائده، ويتخذ فى أكثر الأحيان التفاعيل الطويلة، وهنا تظهر شخصية الفنان المقلد الذى يختلف فى أكثر الأحوال عن شخصية الشاعر المطبوع الذى يصدر منه عن وحيه وإلهامه لا عن تقليد وتصنع، فمن أمثلة قول البهاء فى الرقة هذه المقطوعة، وما أكثر مقطوعاته التى تدل على ما نريد.

أرى قوماً بليت بهم	نصيبى منهم نصيبى
فمنهم من ينافق لى	فيحلف لى ويكذب بى
ويلزمى بتصديق الـ	ذى قد قال من كذب
ونو عجب إذا حد	ثت عنه جئت بالعجب
وما يدرى بحمد الله	ما شعبان من رجب
وما أبصرت أحقق منـ	ه فى عجم ولا عرب
وأحمق قد شقيت به	بلا عقل ولا أدب
فلا ينفك يتبعنى	وإن أمعنت فى الهرب
كأنى قد قتلت له	قتيلا فهو فى طلبى
لأمر ما صحبتهم	فلا تسأل عن السبب
يحسب عقلنا أننا	نصيد الباز بالحرب
وكنّا قد طننا الصف	ر عند النقد كالذهب
فلم نظفر بحاجتنا	وأشفينا على العطب
رجعنا مثل ما رحنا	ولم نربح سوى التعب ^(١)

(١) ديوان البهاء زهير ص ٢٢.

فلعل هذه المقطوعة التي تدخل في باب الانسجام عند أصحاب البديع، تدلنا على مدى رقة هذا الشاعر، وسلاسته، وكيف سهلت تراكيبه، وعذبت ألفاظه، فالبهاء زهير أحد الذين عرفوا بهذا اللون من الشعر، عند القدماء وعند المحدثين، وأقرأ له مرة أخرى هذه المقطوعة:

تعيش أنت وتبقى	أنا الذى مت عشقا
حاشاك يا نور عيني	تلقى الذى أنا ألقى
قد كان ما كان منى	والله خير وأبقى
ولم أجد بين موتى	وبين هجرك فرقاً
يا أنعم الناس قل لى	إلى متى فيك أشقى
سمعت عنك حديثاً	يا رب لا كان صدقاً
حاشاك تنقض عهدي	وعروتى فيك وثقى
فما عهدتك إلا	من أكرم الناس خلقاً
يا ألف مولاي أهلاً	يا ألف مولاي رفقا
لك الحياة فإنى	أموت لا شك عشقا
لم يبق منى إلا	بقية ليس تبقى ^(١)

فهذه السهولة توهم القارئ لأول مرة أنه يستطيع أن يأتي بمثلها، ثم لا يلبث أن يراها ممقنة، فهي نوع من الموسيقى العذبة، ومن الانسياب الطريف، والبساطة في التعبير التي هي عندى عين الجمال الفنى، تلك البساطة التي وهم كثير من الباحثين فذهبوا إلى أنها شعبية.

البهاء زهير (٥٨١ إلى سنة ٦٥٦ هـ)

أبو الفضل زهير بن محمد بن على بن يحيى بن الحسن الأزدي المهلبى المعروف ببهاء الدين زهير.

ولد فى ٥ ذى الحجة سنة ٥٨١ هـ فى وادى نخلة بالقرب من مكة فى أسرة عربية أصيلة، تنتسب إلى قبيلة الأزد، ويقال إنه من نسل المهلب بن أبى صفرة، ولذلك يعرف بالمهلبى، وبالرغم من هذا النسب الرفيع فإن البهاء زهير لم يذكر نسبته هذه فى شعره. ولم يصلنا

(١) نفس المرجع السابق ص ١٤٥.

شيء عن نشأته في الحجاز إبان طفولته ، ولا عن أسرته إلا أنه ترك الحجاز صغيرا إلى مصر فاستوطن مع أسرته مدينة قوص بصعيد مصر ، ورحلته إلى مصر غامضة أشد الغموض فلم يتحدث أحد من المؤرخين عن سبب هجرة أسرته من الحجاز ، ولم يحدثنا هو نفسه بشيء عن ذلك ، فلم يرد في ديوانه أية إشارة عن سبب هذه الهجرة ولا متى كانت ، والباحثون الذين تحدثوا عن البهاء زهير يذكرون دائما أنه كان يحن إلى وطنه الأصلي بالحجاز ، وأنه أنشد في ذلك يقول :

أحن إلى عهد المحصب من منى	وعيش به كانت ترف ظلاله
ويا حبذا أمواهه ونسيمه	ويا حبذا حصباؤه ورماله
ويا أسفى إذ شط عنى مزاره	ويا حزنى إذ غاب عنى غزاله
وكم لى بين المروتين لبابة	وبدر تمام قد حوته حجاله
مقيم بقلبى حيث كنت حديثه	وبادٍ لعينى حيث سرت خياله
واذكر أيام الحجاز وأنثنى	كأنى صريع يعتريه خياله
ويا صاحبى بالخيف كن لى مسعدا	إذا آن من بين الحجيج ارتحاله
وخذ جانب الوادى كذا عن يمينه	بحيث القنا يهتز منه طواله
هناك ترى بيتا لزینب مشرقا	إذا جئت لا يخفى عليك جلاله
فقل ناشدا بيتا ومن ذاق مثله	لدى جيرة لم يدر كيف احتياله
وكن هكذا حتى تصادف فرصة	تصيب بها ما رمته وتناله
فعرض بذكرى حيث تسمع زينب	وقل ليس يخلو ساعة منك باله
عساها إذا ما مر ذكرى بسمعها	تقول فلان عندكم كيف حاله ^(١)

وهم أيضا الذين يقولون إنه وفد على مصر صغيرا ونشأ بقوص . وهم أيضا الذين يقولون إنه ربي بقوص ، فكيف نوفق بين هذا كله ؟ ، أما المؤرخون^(٢) فيجمعون على أنه وفد على مصر صغيرا ونشأ وربى بقوص ، إذن نستطيع أن نطمئن إلى أن البهاء زهير جاء إلى مصر وهو فى سن ليس الذى يجعل معه غراميات فى الحجاز ثم يتذكرها بعد سنين عديدة ، والذى له إلمام بالأدب المصرى وخاصة فى أواخر العصر الفاطمى ، وفى العصر الأيوبى

(١) ديوان البهاء زهير ص ١٦٤ .

(٢) اليونينى : ذيل مرآة الزمان ج ١ ص ١٨٤ طبع حيدر آباد . العماد : الشذرات ج ٥ ص ٢٧٦ ،

السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٣٢٧ .

وما بعده يعلم تماما أن الشعراء فى غزلهم كانوا يحرصون على أن يذكروا بعض الأماكن والبلاد التى فى الحجاز، ولا سيما شعراء الصعيد، وقد ذكرنا من قبل أن قوص فى ذلك العصر كانت تعتبر ميناء الحجاز والبلاد العربية وإليها كان يفد الذين يقصدون الأراضى المقدسة للحج أو للتجارة، ومن ثم كان حديث الناس فى قوص وما حولها من بلاد الصعيد يدور حول الأماكن العديدة التى بالحجاز، وأظهر شعراء مصر فى أواخر العصر الفاطمى وما بعده من العصور هذا التقليد فى ذكر تلك البقاع فى أشعارهم، نرى ذلك عند ابنى شعراء الأيوبيين حتى عند هؤلاء الذين لم يزوروا الصعيد ولا الأراضى المقدسة، وكانت هذه الظاهرة اللافتة فى العصر الأيوبى هى السبب الأول فى ظهور فن جديد فى الأدب العربى هو فن المدائح النبوية. إذن نستطيع أن نقول إن ذكر هذه البقاع فى تلك المقطوعة وفى غيرها من شعر البهاء زهير هو نفس التقليد الذى كان فى هذا العصر عند شعراء مصر، وليس هو من قبيل التشوق إلى بيئته الأولى، هذا إذا أخذنا بأقوال المؤرخين من أنه أتى مصر وهو صغير السن.

ويحدثنا المؤرخون أن البهاء بدأ حياته العملية فى مدينة قوص أيضا، إذ عمل كاتباً فى ديوان ابن اللطى، وقد هنا ابن اللطى عندما تولى الأعمال القوصية سنة ٦٠٧ هـ بقوله:

تمليته يا لابس العز ملبسا	وهنأته يا غارس الجود مغرسا
قدمت قدوم الغيث للأرض إنها	به أشرقت حسنا وطابت تنفسا
علوت بنى الأيام إذ كنت فيهم	إذا ذكروا أسمى وأسنا وأرأسا
زعيم بنى اللطى فى البأس والندى	مكرمها المأمول فى الدهر إن قسا
به أصبحت قوس إذا هى فاخرت	أعز قبيل فى الأنام وأنفسا
أجل الورى قدرا وأكرم شيمة	وأكثر معروفًا وأكبر أنفسا
إذا بخس الجهال قدر فضيلة	فليسوا بها بالجاهلّين فيبخسا
هم القوم يلقون الخطوب إذا عرت	بكل كمي فى الخطوب تمرسا
سما بك مجد الدين مجد ومحتد	وعرض نهاه الدين أن يتدنسا
لقد شرفت منه الصعيد ولاية	فأصبح واديه به قد تقدسا
بلاد بلقياك استقامت نجومها	فصرن سعودا بعد ما كن نحسا

وإن عهدت مغبرة الجو يبسا
فلم أرض أن تغدو لغيرك ملبسا
ويستعبد ابن العبد والمتملسا
فما قدر مدحى فى علاك وما عسى^(١)

ستبندى وقد وافى وفاك ربوعها
ورب قواف قد طويت برودها
سيرضيك منها ما يزيد على الرضا
وهبنى أعطيت البلاغة كلها

وتعد هذه القصيدة أول مدح له ، ولذلك نراه فيها شاعرا مقلدا فى صوره ومعانيه متخذا نفس المنهج التقليدى للمديح فهى تمثل طورا من أطوار حياته الفنية ، هو ذلك الطور الذى يمر به كل فنان فى شبابه ، واستمر البهاء زهير على صلته بابن اللطى ، ويظهر أنه اتصل فى ذلك الوقت بالشاعر ابن مطروح وتوطدت الصداقة بين الشاعرين تلك الصداقة التى استمرت طول حياتيهما ، وفى هذا الطور مدح الملك العادل ؛ أنشده قصيدة بقلعة دمشق سنة ٦١٢ هـ ، كما أشاد بانتصار الملك الكامل فى موقعة دمياط سنة ٦١٨ هـ والتى فيها يقول :

وردت على أعقابها ملة الكفر
فناهيك من عرف وناهيك من نكر
ينافس حتى طور سيناء فى القدر
وتخدمه الأفلاك فى النهى والأمر
من الملاء الأعلى له أطيّب الذكر
مواقف هن الغر فى موقف الحشر
لقد فرحت بغداد أكثر من مصر
لما سلمت دار السلام من الذعر
لخافت رجال بالمقام وبالحجر
ويثرب ينهيه إلى صاحب القبر
حمى بيضة الإسلام من نوب الدهر
وطهرها بالسيف والملة والطهر
وكم بات مشتاقا إلى الشفع والوتر
فلا حلمت إلا بأعلامه الصفر
تجاهد فيهم لا بزيد ولا عمرو

بك اهتز عطف الدين فى حلل النصر
لك الله من مولى إذا جاد أوسطا
ومن أجله أضحى المقطم شامخا
تدين له الأملاك بالكره والرضا
فيا ملكا سامى الملائك رفعة
يهنيك ما أعطاك ربك إنها
وما فرحت مصر بذا الفتح وحدها
فلو لم يقم بالله حق جهاده
وأقسم لولا همة كاملية
فمن مبلغ هذا الهناء بمكة
فقل لرسول الله : إن سميّه
به ارتجعت دمياط قهرا من العدا
ورد على المحراب منها صلاته
وأقسم إن ذاق بنو الأصفر الكرى
ثلاثة أعوام أقمت وأشهرا

(١) الديوان ص ١٠٥ .

صبرت إلى أن أنزل الله نصره
وليلة غزو للعدو كأنها
أساطيل ليست في أساطير من مضى
وباتت جنود الله فوق ضوامر
فلازلت حتى أيد الله حربه
لذلك قد أحمدت عاقبة الصبر
بكثرة من أريدته ليلة النحر
بكل غراب راح أفتك من صقر
بأوضحها تغنى السراة عن الفجر
وأشرق وجه الأرض جذلان بالنصر^(١)

كذلك نقرأ له في ديوانه مدائحه في الأمير جلدك والملك المسعود صلاح الدين والملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل وغيرهم، ومعنى ذلك أنه لم ينقطع إلى الأمير مجد الدين بن اللطى، بل اتصل بغيره من الملوك والأمراء يبيع لهم مدائحه ويتقرب إليهم وهو مع ذلك كله لم يزل يعمل في ديوان مجد الدين بن اللطى، حتى حدث ما أغضب منه الأمير، فأخذ البهاء يعاتبه معتذرا حينما ويتوسل إليه متذللا حينما آخر، ثم نراه ينتقل إلى القاهرة ويعمل في ديوان الملك الصالح نجم الدين عندما كان ينوب في حكم مصر عن أبيه الملك الكامل - وقد ذكرنا شيئا عنه في حديثنا عن ابن مطروح - ظل البهاء زهير وفيما لخدمه الملك الصالح، وظل مقيما بمدينة نابلس طوال المدة التي سجن فيها الملك الصالح بالكرك، وبعد عودة الصالح إلى مصر عاد البهاء زهير معه وأصبح رئيسا لديوان إنشائه ولقب بالصاحب أيضا بالرغم من أن هذا اللقب كان من ألقاب الوزراء، ولكن مرتبته كانت تضارع مرتبة الوزراء ولذلك لقب بهذا اللقب. ويظهر أن البهاء زهير قد أخلص الإخلاص كله للملك الصالح فوثق به وقربه إليه فصار البهاء أكثر الناس اختصاصا بالملك واجتماعا به، وسيره الملك سنة ٦٤٥ هـ. رسولا إلى الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب حلب يطلب منه إنفاذ الملك الصالح اسماعيل إليه، ويظهر أنه لم ينجح في سفارته فقد أغلظ الملك الناصر في جواب الرسالة، وعاد البهاء وأفضى بالجواب إلى الصالح الذى غضب ولكنه كتم غيظه فى صدره، وظل البهاء معه إلى أن انتقل الصالح إلى المنصورة لحرب الصليبيين والبهاء معه، وهناك تغير الملك الصالح عليه وأبعده، وقيل إن سبب ذلك أنه كتب عن الملك الصالح كتابا إلى الملك الناصر داود، فلما وقف عليه الملك الصالح كتب بخطه بين الأسطر: أنت تعرف قلة عقل ابن عمى، وأنه يحب من يعظمه ويعطيه من يده، فاكتب له ما يعجبه من ذلك. وسير الكتاب إليه وهو مشغول، فأعطاه لفخر الدين ابراهيم بن لقمان وأمره بختمه، فحتمه وجهره ولم يقرأ ما كتبه الملك الصالح، وأعطاه

(١) الديوان ص ٧٢.

للنجاب فسافر به لوقتته، ولما استبطأ الملك الصالح عود الكتاب إليه ليعلم عليه سأل عنه بهاء الدين وقال: ما وقفت على ما كتبته بخطى بين الأسطر؟ قال: ومن يجسر أن يقف على ما كتبه السلطان بخطه إلى ابن عمه. وأخبره أنه سيره مع النجاء، فسيروا فى طلبه فلم يدركوه، ووصل الكتاب إلى الملك الناصر بالكرك، فعظم عليه وتألّم له، وكتب إلى الملك الصالح يعتبه العتب المؤلم، ويقول له: والله ما بى ما يصدر منك فى حقى، وإنما بى اطلاع كتابك على مثل ذلك. فعز على الملك الصالح وغضب على بهاء الدين زهير، وهذا لمرؤته نسب ذلك إلى نفسه ولم ينسبه إلى ابن لقمان^(١).

ويشاء القدر أن يموت الملك الصالح بعد قليل، فاتصل البهاء بخدمة الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب حلب^(٢)، ثم فارقه إلى مصر، فلزم بيته واضطر لسوء حالته إلى أن يبيع كتبه لينفق من ثمنها، ولما انتشر فى البلاد الوباء العام مرض أياما ثم توفى يوم الأحد رابع ذى القعدة سنة ٦٥٦ هـ.

كان البهاء زهير أسود قصيرا شجاعا^(٣) فكان يندب نفسه ويقصد إلى التشبيهات والتخييلات التى تلائم حالته حتى لا يسبقه إليها أحد معاصريه، ومن هنا كان اتجاه البهاء الفنى إلى السهولة حتى يعوض النقص الذى كان يشعر به نتيجة هيئته وتكاد تجمع المصادر القديمة التى بين أيدينا أن البهاء كان من مدرسة الرقة والسهولة، فالحموى يقول فى خزانته فى ذكر السهولة: «السهولة ذكرها التيفاشى مضافة إلى باب الظرافة، وشركها قوم بالانسجام، وذكرها ابن سنان الخفاجى فى كتاب سر الفصاحة فقال فى مجمل كلامه: هو خلوص اللفظ من التكلف والتعقيد والتعسف فى السبك. وقال التيفاشى: السهولة أن يأتى الشاعر بألفاظ سهلة تتميز على ما سواها عند من له أدنى ذوق من أهل الأدب وهى تدل على رقة الحاشية وحسن الطبع وسلامة الروية^(٤) إلى أن قال الحموى: ومذهبي أن البهاء زهير قائد عنان هذا النوع وفارس ميدانه»^(٥) هذا ما قاله بعض علماء البلاغة فى السهولة التى اتبعها البهاء ولم يذكر أحد من علماء البلاغة القدماء أن شعر البهاء كان شعبيا أو عاميا على نحو

(١) راجع هذه القصة فى ذيل مرآة الزمان لليونينى ج ١ ص ١٨٥ (طبع حيدر أباد).

(٢) المصدر السابق ج ١ ص ١٨٧.

(٣) الصفدى: الغيث ج ٢ ص ٣٤٢.

(٤) الحموى: خزانة الأدب ص ٤٥٤.

(٥) نفس المرجع السابق.

ما قاله بعض الباحثين المحدثين الذين ادعوا أن شعر البهاء كان شعبيا وأنه ملئ بالآفاظ العامية. ولا أدري كيف رموا البهاء أو غيره من تلاميذ مدرسة الرقة بذلك. وقد ذكرنا كيف جمع فن البهاء زهير بين الشعر التقليدي عندما كان يمدح وبين فن أصحاب مدرسة الرقة والسهولة، مما لا يدعو إلى الإطالة في هذا الحديث. وشعر البهاء صورة واضحة لثقافته كما هو صورة لبعض الاتجاهات التي كانت في عصره، فترى في شعره أثر هؤلاء الصوفية الذين انتشروا في البلاد انتشارا كبيرا، فهو يقول مرة:

وإن يك أنفاسي خشيتم لهيبها وهالتكم نيران وجد بأحشائي
فكونوا رفاعيين في الحب مرة وخوضوا لظى نار لشوقي حمراء
فهنا إشارة إلى فرقة الصوفية المنسوبة إلى الرفاعي، وقد عرف عن هذه الفرقة أنهم يبلعون قطع النار، ويتهم مرة أخرى على الصوفية فيقول:

كم أناس أظهروا الزهد لنا فتجافوا عن حلال وحرام
قللوا الأكل وأبدوا ورعا واجتهدوا في صيام وقيام
ثم لما أمكنتهم فرصة أكلوا أكل الحزانى في الظلام
أما ثقافته فيخيل إلى أنه كان ملما بكثير من الشعر القديم، فحينما كان يضمن قصائده أشطرا من الشعر القديم مثل قوله:

وأمسك نفسي عن لقاءك كارها أغالب فيك الشوق والشوق أغلب
فهذا الشطر الأخير هو مطلع قصيدة المتنبي المشهورة، وقال أيضا:
خليلي عوجا بي على الندب جلدك أقضى لبانات الفؤاد المعذب
فتى ماجد طابت مواهب كفه فلا تذكرن لي بعده أم جندب
فالأصل في هذين البيتين قول امرئ القيس:

خليلي عوجا بي على أم جندب لنقضى لبانات الفؤاد المعذب
وفي إحدى قصائده في مدح النصير بن اللطى يقول:

هذا زهيرك لا زهير مزيّنة وافاك لا هرما على علاته
دعه وحوليّاته ثم استمع لزهير عسرك بعض ليليّاته

لو أنشدت فى آل جفنة أعرضوا عن ذكر حسان وعن جفنتاه
فهذا كله يدل على أن البهاء زهير كان ملما بأشعار زهير بن أبى سلمى فى هرم
بن سنان وبأشعار حسان بن ثابت، ومرة أخرى يذكر ذا الرمة وكعب بن الإيادى
وحاتم الطائي فيقول:

وغيث سمعت الناس ينتجعونه فأين يرى غيلان منه وصيدح
دعوا ذكر كعب فى السماح وحاتم فليس بعد اليوم ذاك التسميح
ويحدثنا عن الفرزدق وجريير فيقول:

إذا ذكرت فى الحى أصبح آيسا فرزدقها من وصلها وجريرها
ويذكر بئينة وجميل فيقول:

وما كل مخضوب البنان بئينة وما كل مسلوب الفؤاد جميل
ويذكر النابغة والحطيئة بقوله:

لو أنها ممن تقدم عصره منعت زيادا أن يقولوا وجرولا
ويضمن الشطر الثانى من بيت للمتنبى:
بليت بلى الأطلال إن لم أقف بها وقوف شحيح ضاع فى الترب خاتمه
فقال البهاء:

وقفت على ما جاءنى من كتابكم وقوف شحيح ضاع فى الترب خاتمه
ثم انظر إلى هذه المقطوعة فهو يقول:

أنا ذا زهيرك ليس إلا جود كفك لى مزينه
أهوى جميل الذكر عن ك كأنما هو لى بئينه
فاسأل ضميرك عن ودا دى إنه فيه جهينه

هكذا نرى فى ديوان البهاء زهير ما يدل على تأثره بالشعر العربى القديم وبيعض
الأخبار التاريخية العربية. وتضمنه بما قاله القدماء دليل على أن البهاء كان يحفظ كثيرا
من أشعارهم. وأن مهارته الفنية جعلته يصطنع فى شعره هذه الأجزاء من الشعر القديم،
وكأنها فى موضعها الطبيعى من شعره هو، وهذه مقدرة لا يستطيعها إلا كل من رسخت

قدمه فى الفن، فلا غرو أن البهاء كان من شعراء مصر الممتازين، ولا غرابة فى أن يعجب به كل من عاصره وكل من جاء بعده، وللبهاء زهير تلاميذ أخذوا عنه طريقته وفنه نذكر منهم عماد الدين الدينيسرى الطبيب، فقد سحب البهاء مدة، وتخرج به فى الأدب والشعر^(١) بالرغم من أنه كان طبيبا وله مؤلفات فى هذا العلم منها المقالة المرشدة فى درج الأدوية المفردة، وأرجوزة فى الدرباق الفاروقى، ونظم مقدمة المعرفة لبقراط الطبيب وغير ذلك، أما شعره فهو قليل، وهو ينحو نحو مدرسة السهولة فمن ذلك قوله :

عشقت بدرا مليحا	عليه فى الحسن هالة
مثل الغزال ولكن	تغار منه الغزالة
فقلت أنت حبيبى	ومالكى لا محالة
جسمى يذوب وجفنى	دموعه هطالة
بعثت من نار وجدى	منى إليه رسالة
ولى عليك شهود	معروفة بالعدالة

وسنرى فى عصر الماليك تأثر أكثر الشعراء بالبهاء وبمعنى آخر مدرسة الرقة والسهولة.

ثالثا: شعراء مدرسة الكتاب: وهم هؤلاء الشعراء الذين كانوا على طرفى نقيض مع ما رأيناه من شعراء مدرسة الرقة والسهولة، إذ كانوا خاضعين لتأثير الاتجاهات الفنية التى شغف بها كتاب الدواوين فى العصر الفاطمى وملأوا بها كتاباتهم وأشعارهم. كان فنهم يقوم على الموسيقى اللفظية قبل كل شىء، واختيار الألفاظ الفخمة الجزلة ذات الوقع الضخم والجرس الموسيقى الذى يؤثر فى السمع مع حلاوة الإيقاع، كانوا يتلاعبون بهذه الألفاظ تلاعبا تظهر فيه أثر الصناعة وأثر التكلف، وأسرفوا فى صناعتهم وتكلفهم إسرافا يدل على طول باعهم فى هذا الفن، وعلى تلك الثروة اللفظية التى كانوا يتحلون بها ويصطنعونها فى مهارة ليس بعدها مهارة. وكانوا يحلون فنهم بالزينة البديعية من جناس وتطبيق وتورية ومراعاة النظير إلى غير ذلك من ألوان البديع والبيان حتى بهروا البلاغيين بمقدرتهم على استعمال هذه المحسنات اللفظية، وكثيرا ما كان يحلو لهم استعمال الألفاظ المترادفة أو ما يشتق من اللفظ الواحد فى الجملة الواحدة أو فى

(١) راجع ابن شاکر: فوات الوفیات ج ٢ ص ٢٢١.

البيت الواحد. كل هذه الزينة وهذا التلاعب لون من ألوان التعسف الفني الذى ألزم الكتاب والشعراء الذين يتبعون هذه المدرسة به أنفسهم فظهر فى فنهم هذا التكلف المصنوع الذى يبعد كل البعد عن الطبع ، ويبعد عن تلك الرقة التى يمتاز بها المصريون فى فنونهم ، هذه الصناعة نراها فى شعر القاضى الموفق بن الخلال ، وابن أبى الشخباء ، والقاضى الجليس ، وابن الزبير ، وعمارة اليمنى . وغيرهم من شعراء دواوين الفاطميين^(١) . وعرف عن هؤلاء الكتاب والشعراء مذهبهم وشاع بين كل أديب يطمح فى العمل بالدواوين أو يريد الاتصال بالأمرء والوزراء فأصبح مذهبهم الفني بدعة العصر وتقليدا يسير عليه الشعراء والكتاب .

ومن الطبيعى أن يستمر مذهب شعراء هذه المدرسة فى العصر الأيوبي ويخضع الفنانون ولا سيما الكتاب الخضوع كله لهذه الطريقة التقليدية ولا سيما أن الحاكم الفعلى للبلاد ، والمدير الأول لشئونها فى النصف الثانى من القرن السادس للهجرة هو رجل قضى وقتا طويلا يتدرب على هذا الفن فى دواوين الفاطميين ويأخذ عن الكتاب الفاطميين وشعرائهم مذهبهم الفني ، فنشأ مولعا بهذا المذهب ، داعيا له ، بل غلا فى هذا المذهب غلوا جعل المؤرخين والنقاد ينسبون إليه هذا المذهب الفني وتلك الطريقة التقليدية ، هذا الرجل هو القاضى الفاضل . وعندى أن نسبة المذهب إليه لون من ألوان التعسف فى الحكم النقدي والتاريخي ، فلو لم يكن القاضى الفاضل وزير مصر الأول فى الأيام الصلاحية ، ولو لم يكن هو صاحب السلطان الفعلى فى البلاد ما كان المؤرخون والنقاد يشيدون بفنه على هذا النحو الذى نجده فى كتب معاصريه أو فى الكتب التى نقلت عن معاصريه ، فالحقيقة التاريخية تقول إنه لم يبتدع هذه الطريقة التى نسبت إليه بل كان مقلدا لمن سبقه ، ولكن شخصيته هى التى جعلت كاتباً مؤرخاً وهو العماد الأصفهاني يشيد به ، ويغلو فى تقريظه ومدحه^(٢) . ولم يكن ذلك كله إلا لأن القاضى الفاضل كان سببا فى اتصال العماد بالسلطين الأيوبيين ولو لم يكن القاضى الفاضل فى هذه المرتبة العليا ما كان هؤلاء الشعراء الذين التفوا حوله مدحوه بهذه المدائح التى نراها فى كتب التاريخ والأدب . إذ كان جل الشعراء فى عصره قد أكثروا من مديحه تقريبا وتزلفا إلى هذا الرجل صاحب السلطان . نحن لا ننكر أن الفاضل كان فنانا من بعض النواحي ولكن موهبته الفنية لم تكن أهلا لكل ما قيل عنه ، ولا سيما

(١) راجع ما كتبناه من ذلك فى كتاب أدب مصر الفاطمية

(٢) راجع ما كتبه العماد فى الخريدة الجزء الأول .

أن فنه كما رأيينا كان فنا مصنوعا متكلفا قد يلذ الأذن ولكنه لا يرضى العاطفة. وكثيرا ما كان الشعراء الذين ساروا على نهجه يعودون إلى أنفسهم ويخرجون على منهجه، ويغلب عليهم طبعهم، فالأسعد بن ممتى مثلا لم يكن يميل إلى الجناس ولم يتخذ مذهباً في نظمه فهو الذى يقول:

طبع المجنس فيه نوع قيادة أو ما ترى تأليفه للأحرف^(١)

وابن سناء الملك غلب عليه فن الموشح الشعبي، والقاضى الفاضل نفسه كان يشذ عن منهجه الفنى، ذلك كله بالرغم من قول العماد الأصفهاني إن مذهب القاضى الفاضل «كالشريعة المحمدية التى نسخت الشرائع ورسخت بها الصنائع»^(٢). وتحدث عن إحدى الرسائل التى كتبها إلى الفاضل فيقول: «وهذه الرسالة قد وفيتها حقها من التجنيس والتطبيق والترصيع والمقابلة والموازنة والتوشيع»^(٣) فهذا النص تصريح من العماد بالتزامه هذه الألوان المختلفة من البديع فى فنه وهى التى تتبع فيها الطريقة التى سماها بالطريقة الفاضلية نستطيع أن نتخذة دليلا على المنهج الفنى الذى سار عليه هو والجماعة الفاضلية أو بمعنى آخر الشعراء الذين التفوا حول الفاضل وهم الذين نطلق عليهم مدرسة الكتاب. ويقول ابن حجة الحموى:

«وأما التورية والاستخدام فما تنبه لمحاسنهما وتيقظ وتحرى وتحرر إلا من تأخر من الشعراء والكتاب وتطلع من العلوم وتضلع من كل باب، وأظن أن القاضى الفاضل رحمه الله تعالى هو الذى ذلل منهما الصعاب وأنزل الناس بهذه الساحات والرحاب حتى ارتشف هذه السلافة أهل عصره وأصحابه الذين نزلوا ربوع مصر وخفقت رياحهم بالإخلاص فى نصره كالقاضى السعيد هبة الله بن سناء الملك ومن انخرط معه فى هذا السلك، ولم يزل هو ومن عاصره على هذا المنهج فى ذلك الأوان، ومن جاء بعدهم من التابعين بإحسان إلى أن جاء بعدهم حلبة أخرى»^(٤).

وبالرغم من ذلك كله فإن مدرسة الرقة والسهولة تقابلت مع مدرسة الكتاب وامتزجتا امتزاجا لافتا عند كثير من الشعراء الذين جمعوا بين المذهبين، فنجد فى شعر ابن المرصص،

(١) الحموى خزنة الأدب ص ٢١.

(٢) العماد. الخريدة ج ١ ص ٣٦.

(٣) نفس المرجع السابق ج ١ ص ٤٤.

(٤) خزنة الأدب ص ٥١.

وابن عرام وابن ظافر والأسعد ابن مماتي ما يجعلنا نقول إن تطورا جديدا قد ظهر في الشعر في هذا العصر هذا التطور هو نتيجة لتغلب الطبع مع الميل إلى الزخرف اللفظي وكان هذا التطور مصدرا لما نراه عند شعراء أواخر العصر الأيوبي وأوائل العصر المملوكي من فن جديد نراه عند الجزار، والحمامي، والسراج، وغيرهم من الشعراء.

القاضي الفاضل (٥٢٩ - ٥٩٦ هـ)

أبو علي عبد الرحيم بن علي بن الحسن اللخمي الملقب بمجير الدين^(١) ويقال محيي الدين^(٢) المعروف بالقاضي الفاضل، ولد بعسقلان سنة ٥٢٩ هـ. وكان أبوه متولى القضاء على مدينة بيسان من قبل الفاطميين مدة طويلة فنسب إليها ولقب بالبيساني ولذلك أطلق على القاضي الفاضل «ابن البيساني». نشأ القاضي الفاضل بعسقلان وبها تلقى علومه، وظهرت ميوله الأدبية منذ صغره فشاء والده أن ينشئ ابنه على نحو ما كان يفعله أرباب الدواوين وكبار رجال الدولة في العصر الفاطمي، إذ كانوا يرسلون أبناءهم إلى الدواوين الفاطمية ليتدربوا على فن الكتابة ويأخذوا عن شيوخ هذه الدواوين فنونهم الإنشائية ويقول الفاضل نفسه: كان فن الكتابة بمصر في زمن الدولة العلوية غضا طريا. وكان لا يخلو ديوان المكاتبات من رأس يرأس مكانا وبيانا، ويقوم لسلطانة بقلمه سلطانا، وكان من العادة أن كلا من أرباب الدواوين إذا نشأ له ولد وشيئا شيئا من علم الأدب أحضره إلى ديوان المكاتبات ليتعلم فن الكتابة ويتدرب ويرى ويسمع أشياء من علم الأدب^(٣). لذلك وفد القاضي الفاضل إلى مصر في سن الشباب ليتلقى عن المصريين فنونهم وآدابهم، وتختلف روايات المؤرخين في سنة وفوده. فابن خلكان يروي عن ابن الأثير عن القاضي الفاضل نفسه أنه قال.. أرسلني والدي وكان إذ ذاك قاضيا بثغر عسقلان إلى الديار المصرية في أيام الحافظ^(٤).

وينقل ابن خلكان أيضا رواية أخرى فقال: وبعد أن نقلت ما قاله ضياء الدين بن الأثير على هذه الصورة، اجتمع بي من له عناية بالأدب خصوصا بهذا الفن وهو من أعرف الناس بأحوال القاضي الفاضل وقال لي هذا الذي ذكره ابن الأثير مما يمكن تصحيحه ولعله قد غلط

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ٤٠٨.

(٢) ابن العماد شذرات الذهب ج ٢ ص ٣٢٤.

(٣) ابن خلكان ج ٢ ص ٤٠٨.

(٤) نفس المصدر السابق.

فى النقل فإن القاضى الفاضل لم يدخل الديار المصرية إلا فى أيام الظافر بن الحافظ^(١).
ويروى ابن خلكان رواية ثالثة فيقول: ثم إني وجدت فى بعض تعاليقي بخطي،
وما أدرى من أين نقلته، أن القاضى الأشرف (والد القاضى الفاضل) كان من أهل عسقلان،
وكان ينوب فى الحكم والنظر بمدينة بيسان، فدخل إلى مصر فى زمان الظافر بن الحافظ
لكلام جرى بينه وبين والى الناحية، واستدعى الوالى إلى مصر، وطولب بمال طائل
فاحتتمى ببعض أمراء الدولة وجعلوا الأقاويل فى حق القاضى الأشرف، فاستدعى وصودرت
أمواله إلى أن لم يبق له شىء، ولم يكن معه من الأولاد سوى القاضى الفاضل، فحمل
على قلبه إلى أن توفى بالقاهرة ليلة الأحد حادى عشر ربيع الأول من سنة ست وأربعين
وخمسمائة للهجرة ودفن بسفح المقطم^(٢).

فواضح من هذه الروايات ما بها من اختلاف، فلم تحدد الرواية الأولى ولا الثانية سنة
دخول القاضى الفاضل إلى مصر، وبالرواية الثالثة إشارة إلى أنه دخلها مع أبيه الذى
صودرت أمواله وحمل على قلبه إلى أن مات سنة ٥٤٦ هـ، وكان ذلك فى خلافة الظافر
بن الحافظ، واختلفت الرواية الأولى عن الروایتين الأخيرتين فى سبب قدوم الفاضل إلى
مصر، ففي الأولى عن الروایتين الأخيرتين فى سبب قدوم الفاضل إلى مصر، ففي الأولى
أنه وفد على مصر ليتعلم ويتدرب فى ديوان المكاتب، وفى الأخيرتين كان السبب لأمر
يتعلق بأموال قيل إن أباه اغتصبها، ولكننا نستطيع أن نوفق بين هذه الروايات بالرغم من
اضطرابها ونقول إن كل هذه الروايات صحيحة، فقد جاء الفاضل إلى مصر لأول مرة فى
أواخر حكم الحافظ الفاطمى بعد أن تولى الموفق بن الخلال رئاسة ديوان الإنشاء والقاضى
الفاضل نفسه يعترف بذلك فيقول: وأمرنى (أى والده) بالمسير إلى ديوان المكاتب وكان
الذى ترأس به فى تلك الأيام رجل يقال له ابن الخلال، فلما حضرت الديوان، ومثلت بين
يديه، وعرفته من أنا وما طلبتى، رحب بى وسهل، ثم قال لى: ما الذى أعددت لفن الكتابة
من الآلات؟ فقلت ليس عندى شىء سوى أنى أحفظ القرآن الكريم وكتاب الحماسة فقال:
فى هذا بلاغ. ثم أمرنى بملازمته، فلما ترددت إليه وتدربت بين يديه أمرنى بعد ذلك أن
أحل شعر الحماسة، فحللته من أوله إلى آخره ثم أمرنى أن أحله مرة ثانية فحللته^(٣).

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) نفس المصدر السابق.

فالنص صريح في أن الفاضل جاء مصر ليتدرب ويتعلم، وأن رئيس ديوان المكاتبات إذ كان الموفق ابن الخلال الذي رأس الديوان في أواخر عهد الحافظ الفاطمي واستمر رئيساً لهذا الديوان حتى عهد العاضد آخر خلفاء الفاطميين، وكان القاضي الفاضل يتردد على أبيه ووفد معه حينما حمل في محنته التي توفي بسببها، وهذه المحنة كانت سبباً في غضب الفاضل وسخطه فنراه يلجأ إلى قاضي الإسكندرية ابن أبي حديد ويفضى إليه بجملة أمره ومحنة أبيه، فعطف ابن أبي حديد عليه وألحقه كاتباً بديوانه بعد أن علم منه أنه تدرب في ديوان الرسائل بين يدي ابن الخلال، وظل الفاضل بالإسكندرية حتى عرف بين كتاب القاهرة بمهارته في فن الكتابة واشتهر أمره إلى بينهم، ويقال إن بعض كتاب القاهرة أرادوا أن يسعوا به إلى الخليفة الظافر، وطعنوا في قدرته الفنية بأن رموه بالتقصير في الكتابة ولكن القاضي ابن الزبير دافع عنه.

ومهما يكن من شيء فإن القاضي الفاضل ظل يكتب لابن أبي حديد بالإسكندرية حتى استدعى للعمل بديوان الإنشاء بمصر، ويقول عمارة اليمنى في حديثه عن الملك العادل بن رزيق وزير الخليفة العاضد الفاطمي، «ومن محاسن أيامه، وما يؤرخ عنها بل الحسنة التي لا توازي، واليد البيضاء التي لا تجازي خروج أمره إلى والي الإسكندرية بتسيير القاضي الأجل الفاضل أبي علي عبد الرحيم بن علي البيساني إلى الباب، واستخدامه في حضرته وبين يديه في ديوان الإنشاء»^(١).

ونحن نعلم أن العادل ولي الوزارة من سنة ٥٤٨ هـ حتى سنة ٥٥٠ هـ ففي هذه المدة عين القاضي الفاضل كاتباً بديوان الإنشاء مع أستاذه السابق ابن الخلال رئيس الديوان، ويخيل إلى أن حسد زملائه الكتاب الآخرين له ازداد وهم الذين رأيناهم يحقدون عليه ويحسدونه لأنهم لم يبلغوا ما بلغه هو في فن الكتابة، شأنهم في ذلك شأن ما يكون دائماً بين أرباب المهنة الواحدة والعمل الواحد، وأنهم اتخذوا من خلقة القاضي الفاضل المشوهة مجالاً لنكاتهم ونواديرهم، فقد كان الفاضل أحذب وقصيرا وهو الذي كان يقول عن نفسه وقد دخل حماماً ذا قبة:

ما كان يكمل حر ذا الحم ف شوا ومن فوقى مكبه^(٢)
فكأننى فيه خرو ف شوا ومن فوقى مكبه^(٣)

(١) عمارة اليمنى: النكت ص ٥٣.

(٢) الصفدى: الغيث ج ٢ ص ٣٤٢.

ويقول شاعر آخر، قيل إنه ابن سناء الملك، ولكنني أستبعد أن ابن سناء الملك يقول هذه المقطوعة في ولي نعمته وأستاذه القاضي الفاضل:

حاشا لعبد الرحيم سيدنا الـ فاضل ما تقوله السفـل
يكذب من قال إن حبيبته في ظهره من عبده حبل
هذا قياس في غير سيدنا يصح لو كان يحبل الرجل^(١)

فهذا التهمك المرير مثل لما كان يقال عن الفاضل، وكم كنا نود أن تحفظ هذه النكات والنوادر التي قالها المصريون في القاضي الفاضل لما لها من دلالة عن فن الفكاهة والهجاء في هذا العصر ولا سيما بين المتنافسين والحساد من كبار رجال الدولة، ولكن المؤرخين يسكتون دائما عن ذكر كل ما يقال في ذلك، فهم لم يذكروا لنا المقطوعات التي قيلت في أنف الجليس ابن الحباب، ولم ينقلوا كل ما قيل في سواد بشرة بن الزبير، وهامهم يسكتون أيضا عما قيل في الفاضل الذي ابتلى بمرضين قبح الخلقة ومرض الجسم.

«فكان جامعا بين مرضى قلب وجسد ووجع أطراف وعليل كبد»^(٢) كل ذلك يجعلني أذهب إلى القول بأنه لم يسلم من نكات وفكاهات المصريين ولا سيما بعد أن أصبح له الأمر في البلاد، والمعروف عن المصريين منذ أقدم عصورهم أنهم لا يحبون رؤساءهم وأنهم يتندرون بالرؤساء دائما فما بالك إذا كان لهم رئيس في خلقة القاضي الفاضل المشوهة! ويظهر أن الفاضل كان يحاول أن يخفف من منظر تشويه جسده بأن كان يستتر حبيبته بالطيلسان حتى لا تظهر للناس^(٣)، وكان لا يسمح أن يذكر في حضرته أى معنى من معاني الاعوجاج والانحناء، ويقال إن أسعد بن مماتي دخل عليه يوما فوجد بين يديه أترجة كبيرة مفرطة في الضخامة، فلما جلس حدق إليها وحدث تفكير وذهول، فأخذ الفاضل يتبادر على نفسه وقال: يا مولاي الأسعد! ما هذه الفكرة الطويلة؟ ما أنت مفكر إلا في خلق هذه الأترجة وما فيها من التكتيل والتعوج، وتعجب من المناسبة لها وكيف اتفق الجمع بيننا وبينها. فدهش ابن مماتي، وانخلع قلبه منه خوفا، ثم رجع إليه خاطره فقال: لا والله، بل أفكر في معنى وقع لي فيها ويسر الله أن نظمت فيها.

(١) ابن العماد: الشذرات ج ٤ ص ٣٢٧.

(٢) أبو المحاسن: النجوم ج ٦ ص ١٢٨.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور ج ١ ص ٧٥.

لله بل للحسن أترجة تذكر الناس بأمر النعيم
كأنها قد جمعت نفسها من هيبة الفاضل عبد الرحيم^(١)

فهذه القصة إن دلت على شيء، فإنما تدل على مدى شعور القاضي الفاضل بمركب النقص من تكوين جسده، وربما كانت هذه الحالة النفسية سببا في أن يذهب القاضي الفاضل في فنه الأدبي إلى هذا النحو الذي رأيناه من شدة الميل إلى الزخرف والزينة كما كانت سببا فيما عرف عنه من حدة الطبع.

ظل الفاضل يعمل في ديوان الإنشاء الفاطمي بين منافسيه وحساده، وخرجت سجلات عن العاضد آخر خلفاء الفاطميين من إنشاء الفاضل، ولما تولى أسد الدين شيركوه الوزارة بمصر طلب من الديوان كتابا يحزر له رسائله فكان من الطبيعي أن يعمل رجال الديوان على التخلص من ذلك الكاتب الذي فرض عليهم من قبل ونافسهم في فنهم حتى ظهر عليهم، لهذا أرسلوا القاضي الفاضل ليكون كاتباً للوزير الجديد حتى يبتعد عن ميدانهم^(٢)، وقد سر الفاضل لذلك، كما إن الوزير أعجبه نفاذه وسمته ونصحه^(٣) ولما تملك صلاح الدين استخلصه لنفسه لحسن اعتقاده فيه ولما أظهره الفاضل من صدق النصيحة وحسن التدبير حتى قيل إن صلاح الدين قال «ما فتحت البلاد بالعساكر إنما فتحتها بكلام الفاضل^(٤)». فمهما كانت المبالغة شديدة في هذا القول فإنه يدلنا على مقدار ما كان يكنه صلاح الدين من اعتزاز برأى الفاضل وفنه حتى أصبح الفاضل هو المدبر الأول للبلاد وحاكمها الفعلي، ويغلب على الظن أن ما قام به القاضي الفاضل من تدبيرات للقضاء على الدولة الفاطمية إنما كان من قبيل الانتقام لما حدث لأبيه ولما قاساه هو من رجال الدواوين، فهو لم ينس أن الفاطميين صادروا أموال أبيه وعذبوه حتى مات، ولم ينس هجاء الكتاب وأصحاب الدواوين له وتندرهم به ومحاولتهم الإيقاع به، وكيف صبر على ذلك كله حتى وافته فرصة الانتقام فلم يتردد في انتهازها، وكان انتقاما رهيبا حقا بالرغم مما عرف عنه من أنه لم يكن يحب الانتقام من أحد.

بلغ القاضي الفاضل في عهد صلاح الدين وابنه العزيز ما لم يبلغه أحد من قبل، إذ كان المستشار الأول لصلاح الدين في سياسته الداخلية في البلاد التي أخضعها لسلطانه،

(١) الصفي: الغيث ج ٢ ص ٣٤٣.

(٢) أبو شامة: الروضتين ج ١ ص ١٥٩.

(٣) ابن العماد: الشذرات ج ٣ ص ٣٢٥.

(٤) ابن العماد: الشذرات ج ٤ ص ٣٢٥.

وفى سياسته الخارجية مع الدول الأخرى وقد أخلص فى عمله الإخلاص كله حتى أجمع المؤرخون على أنه كان غيوراً على مصلحة مولاة صلاح الدين، وعلى مصلحة الشعب نفسه. كان يعمل جهده لإعلاء كلمة المسلمين ورفع شأنهم أمام الصليبيين المغتصبين، ولا غرو فى ذلك، فقد ولد ونشأ بفلسطين مجاوراً للإمارات الصليبية وعاش بالقرب من هؤلاء المستعمرين الأوربيين، وشاهد عن كثب ما قاساه المسلمون على أيدى الطغاة، ف شعر بالآلام إخوانه فى العروبة والدين وهو الرجل الذى عرف بدقة إحساسه ورقة شعوره، فأخذ يفكر كيف يخلص المعذنين مما هم فيه، ودبر لصلاح الدين سبيل الانتصار؛ فكان والحق يقال رشيداً فى كل نضائحه التى بعث بها إلى السلطان ولا تزال أكثر هذه النضائح محفوظة فى رسائله التى وصلتنا، مما جعلنى أعد رسائله وثنائى تاريخية عن هذا العصر بالرغم من أن أكثر المؤرخين لم يأنهوا بها زعماً بأنها من اختصاص مؤرخى الآداب !!! فهذه الرسائل كانت أقوى سبباً فى أن يجد صلاح الدين فى حروبه، وفى تحمل أعباء الجهاد والصبر عليها بعد أن وثق من أن بلاده فى يد رجل أمين مخلص. فلا غرابة بعد ذلك أن نقرأ ما قاله صلاح الدين من أنه فتح البلاد بكلام القاضى الفاضل ونضائحه.

على أن هذا الناصح الأمين للدولة رأى اختلاف أبناء وإخوة صلاح الدين فيما بينهم على تملك البلاد، وتوقع الشر والفساد من فرقتهم وتشتت كلمتهم، فقد هدم كل ما بناه صلاح الدين وما أشار به القاضى الفاضل، فحاول أن يصلح بين المتنافسين المتحاربين ولكن يظهر أن تيار الخلف كان قوياً جارفاً، فاضطر القاضى الفاضل إلى أن يعتزل الناس. وأن يعكف فى داره على الصلاة وقراءة القرآن، وكان أخشى ما يخشاه الفاضل أن يتولى الملك العادل شئون مصر، لهذا كان يتمنى الموت قبل أن يتولى العادل. وقد استجاب الله له، فتوفى فى نفس اليوم الذى دخل العادل فيه باب القاهرة حتى قيل إن العادل كان داخلًا من باب النصر، وجنازة الفاضل خارجة من باب زويلة^(١) وذلك فى سنة ٥٩٦ هـ.

كان الفاضل شيخاً من شيوخ الكتابة وعمالقتهم فى الأدب العربى، فشهرته فى فن الترسل كانت حديث رجال البلاغة العربية بل حديث كل من تعرض للعصر الأيوبرى، ذلك بالرغم مما عرف عنه أنه كان خفيف البضاعة من النحو لا عرياً منه، لكن قوة الدربة توجب له عدم اللحن، وكتب ما لم يكتبه أحد قبله ولا بعده^(٢) فكل الذين تحدثوا عن فن النثر أشادوا بالقاضى الفاضل فكان من حقه علينا أن لا ندخله مع شعراء عصره لقصوره

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٦ ص ١٥٧.

(٢) ابن العماد: شذرات الذهب ج ٤ ص ٣٢٥.

عن اللحاق بهم في مضمار فنهم ، ولكن ما حيلتنا إن كان القدماء من البلاغيين جعلوا له مذهباً سار على نهجه الشعراء الذين كانوا حوله على نحو ما ذكرنا من قبل ، عرف القاضى الفاضل بمهارته فى فن الكتابة دون فن الشعر ، فإننا نجد له قصائد ومقطوعات تظهر تكلفه وبعده عن الطبع ، فحرصه على التلاعب بالزينة البديعية كان أكثر من حرصه على تصوير عواطفه وأهوائه ، فإذا بشعره يلذ السمع ويطرب الأذن ، لما فيه من موسيقى ، ولكنه لا يحرك المشاعر ولا يؤثر فى النفس ، فإذا قرأنا له هذه الأبيات فى النسيب لا نجد فيها حرارة عاطفة الحبيب إنما نقرأ شيئاً لا غناء فيه .

ويأمرنى من لا أطيق بهجرها	وحسبى به لو كان ينظرها حسبى
يشير على جسسى بفرقة قلبه	بقيت كذا، هل كان جسم بلا قلب
وانى على الأيام فيها لعاتب	وحاشى لذاك الوجه من ألم العتب ^(١)

ونقرأ له مقطوعة أخرى يصف فيها مهارته البلاغية فى الترسل

ولى قلم منه عين الكلا	م تجرى فتتنظر عين الكمال
يراع تظل رياض الطرو	س منها موشحة بالصلال
وكتب يفيض بأرجائها	يمين الجدا ولسان الجدل
تقدمها الشكل من فوقها	كمثل السهام أمام النصال
وكم بريت وانبرت للعدو	كوثب الشرار وهمد الجبال
وكم قد كسبن عوادى ظبا	وكم قد سلبن عوارى عوالى
يكلل أفلاك قرطاسها	شموس شوامس عند الزوال ^(٢)

فلا نجد فيها سوى هذا التكلف البغيض والصناعة اللفظية التى يتعسف الشاعر فيها ، ومع ذلك كله فإننا نرى له بعض مقطوعات لا نشك فى صدورها من فنان ماهر فى صناعة الشعر ، فمن ذلك هذه الأبيات التى يستشهد بها البلاغيون فى التورية :

بالله قل للنيل عنى إننى	لم أشف من ماء الفرات غليلا
وسل الفؤاد فإنه لى شاهد	إن كان طرفى بالبكاء بخيلا
يا قلب كم خلفت ثم بثينة	وأظن صبرك أن يكون جميلا ^(٣)

(١) ديوان القاضى الفاضل .

(٢) نفس المرجع السابق .

(٣) الحموى : خزنة الأدب ص ٢٤٣ .

أو قوله فى مدح الوزير شجاع وزير الفاطميين :

أنت الحياة التى ما بعدها رغب	أو الحمام الذى ما قبله رهب
أما ومنك على أعدائك الطلب	فإن أعدى عدو عندنا الهرب
فليس يعصمهم فى الفلك ما ركبوا	وليس ينجيهم فى الأرض ما ضربوا
فلا يعلمهم سرج ولا قتب	ولا يظلمهم بيت ولا طنّب
من كان مضطربا فى فضل طاعتكم	فما له فى بلاد الله مضطرب
وقائل وثب الأعداء! قلت: نعم	كما الفراش على نيرانها تثب
لا يعجب الناس لما أوقدوا فتنا	فالبغى نار ومذكيها لها حطب
وكم ضربت بسيف ماله قرب	كما زحفت بجيش ماله لجب

وهكذا كان الفاضل فى بعض مقطوعاته شاعرا ولكنه لم يبلغ فى الشعر ما بلغه فى النثر بيد أنى أريد أن أشير هنا إلى ناحية من فن الفاضل فطن لها القدماء من النقاد، وهى ناحية إسرافه الشديد فى المبالغة التى ظهرت فى شعره وفى نثره. وأن من كان حوله من الشعراء اقتدوا به وساروا على نهجه، وما قاله النقاد فى ذلك حق لامية فيه، غير أنى أقول إن المبالغة فى القول ليست جديدة على مصر والمصريين، بل هى من أخص خصائص الشخصية المصرية فى كل عصورها، فنحن نجد هذه المبالغة فى الشعر المصرى وفى الكتابة المصرية فى جميع العصور، وإلى الآن نرى المثل العامى «يعمل من الحبة قبة» دليلا واضحا على ما وصلت إليه المبالغة المصرية وتغلغلها عند المصريين جميعا، وربما أذهب إلى أبعد من ذلك فأقول إن المصرى مبالغ فى كل شىء، فهو يغالى فى مسكنه وملبسه، ويبالغ فى أفراحه وأحزانه، ويسرف فى آماله وتشاؤمه، وحياتنا الاجتماعية فى مظاهرها المختلفة واضحة أمام أعيننا نستطيع أن نتعرف منها هذا الغلو فى كل شىء. فإذا كان القاضى الفاضل قد بالغ فى نثره وشعره فهو لم يأت بشىء جديد على مصر، إنما كان يعبر عن طبيعة الحياة المصرية كما عبر عنها غيره من الشعراء والكتاب الذين أسرفوا فى المبالغة أيضا.

ويحاول بعض الباحثين المحدثين أن يعزو التعقيد فى شعر القاضى الفاضل وشدة ولعه بالزينة اللفظية إلى أنه نشأ فى بلد غير مصر، ولكننا ذكرنا من قبل إن ما ذهب إليه القاضى الفاضل إنما أخذ عن الفن المصرى الذى كان قبل الفاضل، وأنه كان تلميذا للمصريين فيما ذهب إليه.

ومهما يكن من شيء فإن القاضي الفاضل أقلع عن قول الشعر في آخر أيامه ، ورفض أن يستمع إلى الشعراء الذين حملوا إليه مدائحهم ، وهم الذين طالما مدحوه قبل أن يعتزل الحياة العامة ، واستمع إلى أشعارهم ، وربما وجه إلى بعضها نقده . ويطول بي الأمر لو تحدثت عن هذه المدائح التي قيلت فيه ، فكل شعراء عصره أنشدوا في مديحه والإشادة بخلقه وفضله ، بالرغم من وجود الذين هجوه أمثال ابن عنين والوهراني الكاتب الذي رفض الفاضل أن يستخدمه في الديوان فأكثر من الكتابة في هجائه في رسائله المشهورة^(١).

الأسعد بن مماتي (٥٤٤ - ٦٠٦ هـ)

الأسعد شرف الدين أبو المكارم بن الخطير أبي سعيد المذهب بن مينا بن زكريا بن أبي قدامة بن أبي مليح^(٢) فهو على هذا النحو سليل أسرة قبطية الأصل من مدينة أسيوط ولقيت الأسرة بني مماتي لأنه وقع في مصر غلاء عظيم في زمن أبي مليح وكان رجلا كثير الصدقة على الفقراء فكانوا إذا رأوه نادى كل واحد منهم مماتي فاشتهر بذلك بين المصريين وأصبح هذا اللقب على أسرته كلها ، ويحدثنا الإدقوى في كتابه البدر السافر^(٣) أن أبا مليح مماتي هذا كان اسمه مينا بن أبي زكريا بن أبي قدامة على خلاف ما رواه ابن خلكان ويضيف الإدقوى أنه كان جوهريا بمصر يصبغ البللور صبغة الياقوت فلا يميز بينهما إلا الخبير بالجواهر^(٤) ، ويظهر أن أبا مليح استطاع أن يتصل برجال مصر في عصر المستنصر الفاطمي ، وأن يتولى بعض الدواوين بل ذهب ياقوت إلى القول: «وكان إلى مماتي كثير من الأعمال»^(٥) واستطاع أن يجمع مالا جما ويمتلك إقطاعات واسعة وكان مسرفا في الإنفاق ويروى عنه أن بعض تجار الهند قدم إلى مصر ومعه سمكة مصنوعة من عنبر أحكم صنعها ورصعت بالجواهر فعرضها على الوزير بدر الجمالي ليبيعها منه فطلب ثمنا لا ينقص عن ألف دينار ، فأعيدت إلى التاجر فخرج بها من دار الوزير فرآه أبو المليح مماتي فأخذها منه بألف دينار ، واتفق أن شرب أبو مليح يوما حتى سكر وقال لندمائه «قد اشتهيت سمكا يقلني بحضرتنا» فجاء له بمقلي حديد وفحم فأخذ أبو المليح تلك السمكة العنبر فتركها في المقل فأخذت رائحة العنبر تفوح حتى لم يبق بمصر دار إلا ودخلتها تلك الرائحة ، وشم الوزير

(١) راجع رسائل الوهراني -- نسخة خطية بدار الكتب المصرية رقم ٢٤ أدب.

(٢) ابن خلكان ج ١ ص ٦٨.

(٣) نفس المرجع السابق ص ١١٤.

(٤) نفس المرجع السابق ص ١٩٨.

(٥) معجم الأدباء ج ٦ ص ١٠٤.

بدر الجمالى تلك الرائحة تزداد، فخشى أن يكون حريق وقع فى خزائنه فطلب من خزانة أن يفتشوها، فلما لم يجدوا شيئا طلب منهم أن يعرفوا سر هذه الرائحة، فجاءوه بالخبر اليقين فاستعظم القضية، وقال هذا الفاعل الصانع قد أكل أموالى واستبد بالنديا دونى حتى أمكنه أن يفعل مثل هذا، فلما كان الغد دخل إليه وهو مغضب وقال له: ويحك! أستعظم أنا وأنا ملك مصر شراء سمكة من العنبر فأتركها استكثارا لثمنها، فتشترىها أنت، ثم لا يقنئك حتى تقلبها، وتذهب فى ساعة ألف دينار مصرية، ما فعلت هذا إلا وقد نقلت بيت أموالى إليك، وفعلت، فقال له مماتى:، والله ما فعلت هذا إلا غيرة عليك، ومحبة لك، فإنك اليوم سلطان نصف الدنيا، وهذه السمكة لا يشتريها إلا ملك، فخفت أن يذهب بها إلى بعض الملوك، ويخبره بأنك استعظمتها ولم تشتريها فأردت أن أعكس الأمر، وأعلمه أنك ما تركتها إلا احتقارا لها وأن كاتبنا نصرانيا من كتابك اشتراها وأحرقها، فيشيع بذلك ذكرك، ويعظم عند الملوك قدرك. فاستحسن الوزير بدر الجمالى ذلك منه وأمر له بضعفى ثمنها كما زاد فى رزقه^(١). فإن صحت هذه القصة فهى تدل على أن أبا مليح كان يعيش فى عصر بدر الجمالى وأنه كان كاتباً من كتابه، وكان ذا دهاء ولؤم، وكان ذا فطنة وكياسة فاستطاع بكل هذه المزايا أن يصل إلى قلب وزير الدولة الأول وحاكمها الفعلى، ولعل لقب مماتى أطلق عليه أثناء الشدة المنتصية التى انتهت بتسلم بدر الجمالى لزام الحكم فى مصر، ويذكر أمية بن عبد العزيز بن أبى الصلت فى الرسالة المصرية أن ابن مكنسة الشاعر المعروف كان منقطعاً إلى أبى المليلح هو وغيره من الشعراء، وأن ابن مكنسة رثاه بقصيدة منها:

ماذا أرجى من حيا	تى بعد موت أبى المليلح
طويت سماء المكرما	ت وكورت شمس المديح
ما كان بالنكس الدن	سى من الرجال ولا الشحيح
كفر النصارى بعد ما	غدروا به دين المسيح

فمن هذه المقطوعة نستدل على أن أقباط مصر ربما كانوا سبباً فى قتله، فالتاريخ لا يحدثنا عن موت هذا الرجل، ولكن الشاعر هنا صريح فى هجاء النصارى الذين غدروا به وكان هذا الرثاء سبباً فى أن يحرم الشاعر ابن مكنسة من عطاء الوزير الأفضل بن بدر الجمالى. إذ يقال إن الشاعر دخل إليه مادحاً بعد توليته فقال له الوزير: ذهب رجاؤك بموت أبى مليح، فما الذى جاء بك إلينا؟ ولم يقبل مدائح، وظل بعيداً عن بلاط الوزير

(١) راجع ياقوت معجم الأدباء ج ٦ ص ١٠٤ وما بعدها.

بسبب هذا الرثاء، إلى أن توفي،^(١) وكان أبو مليح هذا هو رأس أسرة بنى مماتى التى نبغ فيها اثنان، المهذب الخطير وابنه أسعد بن المهذب، أما الخطير فكان يتولى ديوان الجيش^(٢) وقيل بل كان على ديوان الإقطاعات^(٣)، وقيل بلى على الخراج^(٤) والأصح عندي أنه كان على ديوان الجيش بمصر فى أواخر العصر الفاطمى، وظل يتمتع بحريته الدينية إلى أن استوزر أسد الدين شيركوه وعلم أن الخطير بن مماتى يتصرف فى عمله بلا غيار، فنهاه، وأمره بغيار النصارى وشد الزنار، ورفع الذؤابة، وصرفه عن الديوان، وفى ذلك يقول الخطير، وقيل إن هذين البيتين ينسبان لعمارة اليمنى :

يا أسد الدين ومن عدله يحفظ فينا سنة المصطفى
كفى غيارا شد أوساطنا فما الذى يوجب كشف القفا^(٥)

فبادر الخطير بن مماتى هو وأولاده وأسلموا على يد الوزير، فعفا الوزير عنه وأمره على ديوان الإقطاعات مدة، ثم صرفه بعد ذلك، فهجاه الوجيه ابن الذرؤى بأبيات منها :

لم يسلم الشيخ الخطير لرغبة فى دين أحمد
بل ظن أن محاله يبقى له الديوان سمرمد
والآن قد صرفوه عنه هـ، فالعود أحمد^(٦)

وكان الخطير يتغزل فى ابن النحال وزير الملك العادل، وكان أيضا قبطيا وأسلم، فمن قوله فيه :

وشادن لما أتى مقبلا سبحت رب العرش باريه
ومذ رأيت النمل فى خده أيقنت أن الشهد فى فيه^(٧)

وكان ابن النحال يسكن فى أول درب نور الدين وكان فى آخر الدرب صبي جميل الوجه نصراني يعرف بابن زنبور فقال فى ذلك الخطير :

(١) راجع أدب مصر الفاطمية ص ١٨٨ وما بعدها.

(٢) الخريدة ج ١ ص ١١٣.

(٣) ياقوت ج ٦ ص ١٠٩.

(٤) خطط المقرئ ج ٢ ص ١٦٠.

(٥) ياقوت : معجم الأدباء ص ١١٠ وكتاب شعراء النصرانية بعد الإسلام.

(٦) ياقوت : معجم الأدباء ج ٦ ص ١٠٩.

(٧) العماد الخريدة ج ١ ص ٣١٥ وما بعدها.

حوى درب نور الدين كل شمردل
فأوله للشهد والنحل منزل
وله فى غلام قبضى أيضا:

يظلمنى العاذلون فى رشا
مذ حل رسم الصليب فى يده

ومن قول الخطير فى مدح صلاح الدين الأيوبي:

أعاذلتى إن الحديث شجون
أسمع عذلا فى التى تملك الحشا
هل العيش إلا قرب دار أحبة
وهل لفؤادى منذ شط مزارها
أبيت رقيب النجم منها كأنما
كأن ظلام الليل إذ لاح بدره
كأن الثريا ترقب البدر غيرة
كأن سهيلا فى مطالع أفقه
كأن السها تبدو أوانا وتجتلى
وقد مالت الجوزاء حتى كأنها
كأن صلاح الدين للشمس نورها

مشددة أوساطهم بالزنانير
وآخره يا سادتى للزنابير^(١)

إن قيل كالشمس كان مظلوما
حل بقلبى هواه مرسوما^(٢)

مكان سليمى فى الفؤاد مكين
وأتبعه إنى إذن لخوون
هل الموت إلا أن يخف قطين
من الوجد إلا زفرة وأنين
عيونى لم يخلق لهن جفون
دجوى شعر لاح منه جبين
فقد هجرت منها المنام عيون
فؤاد مروع خامرته ظنون
لدى الليل سرا فى حشا مصون
كمى بخطى السماك طعين
ولولاه ما كان الصباح يبين^(٣)

فهذه القصيدة تدلنا على دقة حس هذا الشاعر، ورقة شعوره، وعلى حسن اختياره للفظ الذى يتلائم فيه المعنى مع الموسيقى، ثم هذه التشبيهات الكثيرة التى تعطينا صورة مختلفة لهذا العاشق الذى فارقه حبيبته، فهو من وجده فى أنين وزفرة، وفى سهاد كأن عيونه لم يخلق لها جفون، وتشبيهه ظلام الليل وقد انتشر فى الأفق بينما لاح القمر فى السماء فى وسط هذا الظلام بوجه الحبيب عندما يسفر وقد أحاط به شعره الأسود، وهذه الثريا ترنو إلى القمر وكأنها فى غيرة منه وجعلتها هذه الغيرة لا تنام، وهذا كوكب سهيل يرتعش

(١) ياقوت. معجم الأدباء ج ٨ ص ١١.

(٢) العماد الخريدة ج ١ ص ١١٤.

(٣) العماد الخريدة ج ١ ص ١١٥.

وميضه كأنه خائف مرتاع تساوره الظنون والأوهام، وهذا نجم السها حينما يبدو ويختفي كأنه ذلك الذى يحفظ سرا لا يريد أن يطلع عليه أحد، وهذا كوكب الجوزاء وكأنه ذلك المقاتل الذى يطعن السماء، كل هذه الصور المختلفة رسمها لنا الخطير بن مماتى فى تلك الدقة التى تدلنا على أنه كان فنانا دقيق الحس حقا، واسع الخيال، يجيد فنه. ثم انظر كيف تخلص هذا الشاعر فى رقة ولباقة إلى الغرض من القصيدة وهى مدح صلاح الدين فشبه صلاح الدين بالشمس التى لولها ما كان ينبج الصبح، كل ذلك صور يتلو بعضها بعضا فى سهولة ورفق شأن الفنان المتمكن من فنه.

وتوفى الخطير فى ٦ رمضان سنة ٥٧٧ هجرية.

أما الأسعد بن مماتى فقد خلف أباه على ديوان الجيش وتصدر فيه مدة طويلة وأضيف إليه ديوان المال، واستمر على هذه الدواوين أيام صلاح الدين وابنه العزيز، واختص بالقاضى الفاضل فحظى عنده، وكرم لديه، وأشاع من ذكره، ونبه على فضله، وصنف للقاضى الفاضل عدة كتب باسمه، ومدحه بعدة قصائد منها:

لا تلم فى اضطرابنا لاحمراره	جل نار القلوب من جلناره
وهو حد يكاد يقبض منه	كل طرف لولا اعتذار عذاره
ما رأى منكرا رضاب مدام	مذ روى طرفه حديث خماره
ليس فيه من راحة لمريد	قبلة تطفئ اضطرام اضطاراه
غير أن الحياء فيه مضاه	للحيا فى انهماله وانهماره
أوجد الفاضل الذى أوجد الجو	د فمن كفه انفجاره بحاره
ذلك السيد المشيد للمجد	مد إلى أن أتى على إيثاره
من عذا الدهر باسمه باسم الزهد	رضحوكا به بهار نهاره
لم يطفنا من بره ورد وعد	لم يشنه انتظام شوك انتظاره ^(١)

ولعلك لاحظت فى هذه المقطوعة هذا التكلف وذلك التصنع الذى ظهر ظهورا لافتا فى كل بيت من تلك المقطوعة، فبالرغم من أن الأسعد لم يكن يميل إلى الجنس كما ذكرنا من قبل ولكنه هنا اضطر إلى أن يستخدمه لأنه كان يمدح القاضى الذى كان يعشق هذا التلاعب اللفظى فخاطبه الأسعد بالفن الذى يعشقه، وعلى هذا النحو من الشعر كان ينشد الأسعد كلما مدح الفاضل.

(١) العماد: الخريدة ج ١ ص ١١٣.

لم يزل الأسعد متصلا بالأيوبيين وعلى ديوانهم إلى أن وُزر ابن شكر للملك العادل وكان بين الوزير الجديد وبين الأسعد عداوة قديمة منذ كان الأسعد رئيسا على ابن شكر. وكثيرا ما كان يهينه، فحقدتها ابن شكر عليه إلى أن صارت إليه الوزارة، فأقبل بكليته على الأسعد، وفوض إليه جميع الدواوين لمدة سنة كاملة اطمأن فيها الأسعد إلى هذا الوزير الجديد، ثم أظهر الوزير حقه الدفين بعد مؤامرات دسها عليه، وأول أعمال الأسعد تأويلات نكبه على إثرها نكبة شنيعة، وطالبه بأموال جمّة، لم يكن له وجه فيها، وأحال عليه الجنود فطالبوه وآذوه، وعلق في المطالبة على باب داره في الطريق العام إحدى عشرة مرة في يوم واحد؛ فلما رأى الجند أنه لا يستطيع الوفاء بالمال قيل له تحيل ونجم هذا المال، فقال الأسعد أما المال فلا وجه له عندي ولكن إن أطلقت استجديت من الناس فليس لي بعد ما أخذتموه درهم واحد، فأطلق بعد أن قسط المال عليه، وبقي مدة قصيرة إلى أن حل بعض القسط عليه فاختم في مقبرة في القرافة، وأقام هناك مدة عام كامل، حتى ضاق الأمر عليه، فهرب قاصدا إلى الشام، وبينما هو في الطريق لحقه فارس مجد سلم إليه مكتوبا، فإذا هو من الوزير يقول فيه:

— لا تحسب أن اختفأك عني كان بحيث لا أدرى أين أنت، ولا أين مكانك، فاعلم أن أخبارك كانت تأتيني يوما يوما، وأنت كنت في قبور المادرائيين بالقرافة منذ يوم كذا، وأننى اجتزت هناك، واطلعت فرأيتك بعيني، وأنت لما خرجت هاربا عرفت خبرك ولو أردت ردك لفعلت، ولو علمت أنك قد بقى لك مال، أو حال لما تركتك، ولم يكن ذنبك عندي مما يبلغ أن أتلف معه نفسك، وإنما كان مقصودي أن أدعك تعيش خائفا، فقيرا، غريبا، ممججا في البلاد، فلا تظن أنك هربت منى بمكيدة صحت لك على، فاذهب إلى غير دعة الله. فعندما قرأ الأسعد هذا الخطاب بقى مبهوتا إلى أن وصل حلب وقد أنشد في هذه القصة:

تنكر لى ود الصفى ولم أكن	به رافعا رأنا لو اعتدل الزمن
ولكن علا عند انخفاض وساءنى	وحسبك من شخص تركت له الوطن
وقال أيضا إبان محنته:	

لا تقبلن من الوشا	ة وتقبلن على السواذل
فالعين قد جنت ببعد	ك والدموع لها هواطل

واتصل هناك بالوزير جمال الدين الأكرم، ونزل في داره، وعندما عرف الملك الظاهر ابن صلاح الدين خبره أجرى عليه رزقا دون أن يستعمله إلى أن توفي بحلب سنة ست وستمائة للهجرة.

كان الأسعد بن معاتي من الأدباء المؤلفين ويذكر ياقوت من كتبه كتاب تلقين التفنن في الفقه، وكتاب سر الشعر، كتاب علم النثر، كتاب سلاسل الذهب، وهو ذلك الكتاب الذي ألفه للقاضي الفاضل، وكان أولا بعنوان الشيء بالشيء يذكر. فسماه القاضي الفاضل بسلاسل الذهب، كتاب تهذيب الأفعال لابن ظريف، كتاب قرقرة الدجاج في ألفاظ ابن الحجاج، كتاب الفاشوش في أحكام قراقوش وكتاب لطائف الذخيرة لابن بسام، كتاب ملاذ الأفكار وملاذ الاعتبار، كتاب سيرة صلاح الدين، كتاب أخاير الذخائر، كتاب كرم النجار في حفظ الجار ألفه باسم الملك الظاهر عندما قدم عليه حلب، إلى غير ذلك من الكتب التي ذكرها ياقوت. ويصف ياقوت هذه الكتب بقوله: «وله تصانيف كثيرة يقصد بها قصد التأدب، وفي معرض وقائع تجرى، ويعرضها على الأكابر لم تكن مفيدة إفادة علمية، إنما كانت شبيهة بتصانيف الثعالبي وأضرابه»^(١).

ولم يذكر ياقوت كتابين ذكرهما ابن خلكان: الأول كتاب نظم كليلة ودمنة، والثاني ذلك الكتاب القيم كتاب قوانين الدواوين الذي نشره الأستاذ الدكتور سوريال عطية. من هذا كله نستدل على أن الأسعد لم يكن شاعرا فحسب أو كاتباً من كتاب الدواوين المالية، إنما كان أديبا مؤلفا، كما كان سريع البديهة حلو النكتة. أما شعره فهو مثل شعر القاضي الفاضل ضعيف في جملته لم يرتفع إلى درجة غيره من الشعراء المعاصرين وذلك بسبب هذا التكلف الذي اضطر إليه، فانظر إليه وهو ينشد علم الرؤساء ابن رفاعة:

إن قلبي من شقة البين يخشى	وفؤادي من شقوة البين يخشع
ومقامي يقضى بطول سقامي	إذ لحاظي من قبل تطمح تطمع
وغدوى فيما يسر عدوى	ويريه من القلى ما توقع
ولقد عيل في الصبابة صبرى	فإلى كم أسير في غير مهيع
أنا صب بغادة تشبه الطا	ووس إذ كان حسنهما يتنوع
ذات لفظ كأنه ثغرها الأش	ننب لو أن دره يتجمع

(١) ياقوت: ج ٦ ص ١١٧.

فهي في كل حالة تتمتع
صرت من منعها له لست أجمع
بجمال فقلت لو كان ينفع
ين فقالوا دمع لأنى أجزع
وفؤادى مما تصدى تصدع
ب فقلت هيهات ما أنت يوشع
سم في كل ساعة يتفرع
ثر فخلنا دروجه تتوشع
فى قريض مصرع بل مصرع^(١)

لى من عجبها رقيب قريب
منعت طيفها الزيارة حتى
واستقلت دمعى غداة استقلت
هو منى دم جرت معه الع
ثم ولت سقما على وولت
قلت إلا وقفت يا شمس للحد
وغرامى بها كفضل أبى القا
كم أرانا الرياض فى لفظة الن
وسقانا مدام معنى بديع

لعلى فى غنى عن التعليق على ضعف هذا الشاعر، فصناعته واضحة فى القصيدة، غير
أن لهذا الشاعر مقطوعات خالية من التكلف وصادرة عن طبيعته نستطيع أن نلمس فيها
فنه الطبيعى فمن ذلك قوله يصف جزيرة الروضة:

ولازالت اللذات فيك اتصالها
يميت ويحيى هجرها ووصالها
ومختلفات الموج فيها جمالها
ترف على أهل الضلال ظلالها^(٢)

جزيرة مصر لاعدتك مسرة
فكم فيك من شمس على غصن بابة
مغانيك فوق النيل أضحت هواجا
ومن أعجب الأشياء أنك جنة
وقوله فى وصف الخليج:

ولكن فيه للرائى مسرة
كأنهمو نجوم فى المجرة^(٣)

خليج كالحمام له صقال
رأيت به الملاح تعوم فيه

هكذا نرى جميع شعراء مدرسة الشعراء والكتاب يضعف شعرهم عندما يعتمدون الزينة
والتكلف، ويرق شعرهم عندما يعودون إلى طبعهم.



(١) العماد الخريدة ج ١ ص ١٠٤.

(٢) السيوطى. حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢٠٧.

(٣) نفس المرجع السابق.

خاتمة

هكذا كانت حياة الشعر في العصر الأيوبي، تعددت أغراضه وموضوعاته بتعدد الأحداث السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي طرأت على مصر في هذا القرن من الزمان. عبر عنها الشعر تعبيراً دقيقاً هو ذلك التعبير الذي شعر به الشعب المصري أمام هذه الأحداث الجسام، لم يكن الشعر متصلاً بالأمراء والسلاطين فحسب، إنما اتصل بصميم الحياة، أصبحنا نرى الشعر المصري مرآة للحياة المصرية من جميع نواحيها، وليس مرآة لحكامها فقط، فقد انحرف الشعراء بعض الشيء عن الملوك وبدأوا يتصلون بالوزراء، وولاة الأقاليم، ورؤساء الدواوين. كما اتصل بعضهم ببعض، واتصلوا أيضاً ببقية الشعب، فأصبح شعر هذا العصر من الوثائق التاريخية الهامة التي يجب أن نعتمد عليها في تصوير بيئتنا المصرية في النصف الأخير من القرن السادس والنصف الأول من القرن السابع من قرون الهجرة، أضف إلى ذلك كله أن هذه الأحداث التي مرت بالبلاد في هذه الفترة أوجدت فنونا جديدة لم يعرفها أديبنا العربي في كل بيئاته من قبل، إنما وجدت في هذا العصر على نحو ما ذكرناه، فكان الشعر معبراً عن هذه التطورات التي حلت بالعالم الإسلامي، خيرها وشرها. هذا مع ما طالبت به البيئة المصرية من إخضاع الفن لها، فوجدنا الشعراء يتجهون إلى هذا الأسلوب السهل الرقيق، وإلى الفكاهة الحلوة، وإلى المقطوعات بدلاً من القصائد، وإلى الأوزان الخفيفة أو المجزوءة بدلاً من الطويلة، كل ذلك كان بتأثير بيئة مصر السهلة اللينة، ثم ما نراه من مبالغة شديدة تلك المبالغة التي تعتبر من أخص خصائص المصريين في أقوالهم وأفعالهم، كل ذلك ظهر بوضوح في شعر المصريين في العصر الأيوبي. لم تنس مصر شخصيتها، وهي تحت حكم الأكراد، ولم تفقد مصر كيانها. أو قوتها حينما كان يحكمها أغراب عنها، فمصر هي مصر، إن خضعت حربياً للفاطحيين فإنها تستطيع أن تهضمهم وأن تخضعهم لها، دون أن تخضع هي لهم، أو تفنى هي فيهم. وهذه هي مصر في كل عصورها التاريخية، أحداث تتجدد عليها وهي صامدة كالطود الراسخ، لا تؤثر فيها تلك الأحداث، إلا كما يؤثر النمل في الجبل. لا تفقد شخصيتها مع الزمان.

وتوالى الأيام، إنما تسخر هي من الأحداث والنوائب، وتخرج من كل حادثة وقد انتصرت،
وستظل مصر كذلك مدى الدهر، في سخرية من القدر، وفي قوة كامنة لا تقهر، وفي اعتزاز
ومحافظة على شخصيتها.

وبعد، أرجو أن أكون قد وفقت إلى إظهار حياة الشعر في هذا العصر، ولا يسعني إلا أن
أقدم شكرى إلى أبنائى الطلبة أحمد جابر النحاس، وأسامة يوسف أحمد، وحسن دسوقي
عبد الجواد الشرقاوى لما أظهروه من تضحية بوقتهم فى سبيل زملائهم، وما تجشموه من
تعب، وأنا أملى عليهم هذا الكتاب الذى اضطرتت إلى أن أتمه فى هذا الوقت القصير
حرصا على مصلحة الطلبة، وما قاموا به من تصحيح تجارب المطبعة، مما لا يسعني إلا أن
أذكر ذلك لهم، وإعجابى بما بذلوه.

محمد كامل حسين

الجيزة فى ١٠ ديسمبر سنة ١٩٥٧م